أدب الكاتب: ابن قتيبة (القراءة والفهم)

ومن ذلك: " المأتمُ " يذهب الناس إلى أنه المصيبة، ويقولون: كنا في مأتمٍ، وليس كذلك، إنما المأتم النساء يجتمعن في الخير والشر، والجمع مآتم، والصواب أن يقولوا: كنا في مَنَاحة، وإنما قيل لها مَنَاحة من النَّوائح لتاقبلهن عند البكاء، يقال: الجبَلان يتنَاوحان، إذا تَقَابلا، وكذلك الشَّجرُ، وقال الشاعر:

عشيَّةَ قامَ النَّائحاتُ وشُقِّقتْ ... جيوبٌ بأيدِي مَأْتَمٍ وخدود

أي: بأيدي نساء، وقال آخر:

رَمَتْه أناةٌ مِنْ رَبيعةِ عامرٍ ... نَؤومُ الضُّحا في مَأْتَمٍ أيِّ مأتمِ

يريد في نساء أيّ نساء.

ومن ذلك قول الناس: " فلان يتصدَّق " إذا أعطى، و " فلان يتصدَّق " إذا سأل، وهذه غلط، والصواب " فلان يسأل "، وإنما المتصدّق المُعطي، قال الله تعالى:) وتَصَدقْ علينا إن الله يجزي المُتَصَدّقين " .

ومن ذلك: " الحَمَام " يذهب الناس إلى أنه الدَّواجن التي تُستفرخُ في البيوت، وذلك غلط، إنما الحمام ذوات الأطواق وما أشبهها مثل الفَوَاخِت والقَمارِيّ والقَطَا، قال ذلك الأصمعي، ووافق عليه الكسائي، قال حُميد بن ثور الهلالي:

وما هاجَ هذا الشَّوقُ إلاَّ حَمَامَةٌ ... دَعَتْ ساقَ حُرّ تَرْحَةً وتَرَنُّما

فالحمامة ههنا قُمريَّة. وقال النابغة الذبياني:

واحكُمْ كَحُكم فتاةِ الحيِّ إذْ نظرتْ ... إلى حمامٍ شِراعٍ وارِدِ الثَّمَدِ

قال الأصمعي: هذه زرقاء اليمامة نظرت إلى قطاً. قال: وأما الدواجن فهي التي تُستفرَخ في البيوت؛ فإنها وما شاكلها من طير الصحراء اليمام، الواحدة يمامة.

ومن ذلك: " الرَّبيعُ " يذهب النَّاس إلى أنَّه الفصل الَّذي يتبع الشتاء ويأتي فيه الوَرْدُ والنَّوْرُ، ولا يعرفون الربيع غيره، والعرب تختلف في ذلك: فمنهم من يجعل الربيع الفصل الَّذي تُدرك فيه الثمار - وهو الخريف - وفصل الشتاء بعده؛ ثم فصل الصيف بعد الشتاء - وهو الوقت الذي تدعوه العامة الربيع - ثم فصل القَيْظ بعده، وهو الوقت الذي تدعوه العامة الصيف؛ ومن العرب من يسمي الفصل الذي تدرك فيه الثمار - وهو الخريف - الربيع الأول، ويسمي الفصل الذي يتلو الشتاء وتأتي فيه الكَمْأَةُ والنَّوْرُ الربيع الثاني، وكلهم مجمعون على أن الخريف هو الربيع.

ومن ذلك: " الظلُّ والفَيْءُ " يذهب الناس إلى أنهما شيء واحد، وليس كذلك؛ لأن الظل يكون غُدوةً وعشيَّةً، ومن أول النهار إلى آخره، ومعنى الظل السِّتْر، ومنه قول النَّاس " أنا في ظِلِّكَ "

أي: في ذَرَاك وسِترك، ومنه " ظل الجنة "، وظل شجرها إنما هو سترُها ونواحيها، وظلُّ الليل: سواده؛ لأنه يستر كل شيء، قال ذو الرُّمة:

قدْ أعسِفُ النازِحَ المجهولَ مُعْسِفُه ... في ظلِّ أخضرَ يدعُو هامَهُ البُومُ

أي: في ستر ليل أسود، فكأن معنى ظل الشمس ما سترته الشخوص من مَسْقطها، والفيء لا يكون إلا بعد الزوال، ولا يقال لما قبل الزوال فيء، وإنما سمي بالعشي فيئاً لأنه ظلٌّ فاء عن جانب إلى جانب، أي: رجع عن جانب المغرب إلى جانب المشرق، والفيء هو الرجوع، ومنه قول الله عزّ وجلّ:) حتَّى تفيءَ إلى أمْرِ الله (أي: ترجع إلى أمر الله. وقال امرؤ القيس:

تَيَمَّمَتِ العينُ التي عندَ ضارِجٍ ... يَفيءُ عليها الظلُّ عَرْمَضُهَا طامِ

أي: يرجع عليها الظل من جانب إلى جانب؛ فهذا يدلك على معنى الفيء. وقال الشمّاخُ:

إذا الأرْطَى تَوَسَّدَ أبْرَدَيْهِ ... خُدودُ جَوازِئ بالرّمْلِ عِينِ

أبْرَداه: الظل والفيء، يريد وقت نصف النهار، وكأن الظباء في بعض ذلك الوقت كانت في ظل ثم زالت الشمس فتحول الظل فصار فيئاً فحوَّلتْ خدودها.

ومن ذلك: " الآل والسَّراب " لا يكاد الناس يَفْرُقون بينهما، وإنما الآل أول النهار وآخره الذي يرفع كل شيء، وسمي آلاً لأن الشخص هو الآل، فلما رفع الشخص قيل :هذا آلٌ قد بدا وتبين، قال النابغة الجعدي:

حتَّى لحقنَا بهمْ تُعْدِي فوارسُنَا ... كأننا رَعْنُ قُفٍّ يرفعُ الآلا

وهذا من المقلوب، أراد كأننا رَعْنُ قُفٍّ يرفعه الآل، وأما السَّراب فهو الذي تراه نصف النهار كأنه ماء، قال الله عزّ وجلّ (:كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يحْسَبُهُ الظمآنُ ماء

كفاية المتحفظ: ابن الأجدابي (الحفظ)

باب في صفات الرجال المحمودة

١- الجَوادُ :الرَّجلُ السَّخيُّ. ٢- والخِرقُ :الكَرِيمُ. ٣- والخِضَمُّ :الكَثيرُ العَطِيَّة.

٤- والهَضُومُ، [والخِضرَمُ]: الكثيرُ الانفاق. ٥- والأريحيُّ :الَّذِي يرتاح للعطاء. ٦- والحَسيبُ :الكَرِيمُ الأباء. ٧- والماجِد :الشَّريفُ. ٨- والصِّنديدُ : [الرجل] الرئيس العَظِيم. ٩- وَكَذَلِكَ :الهُمامُ.

١٠- والسَّمَيذَعُ :السَّيِّدُ. ١١- كَذَلِكَ الجَحجَاحُ. ١٢- والأرِيبُ :العَاقِلُ. ١٣- والحُلاحِلُ : الوَقُورُ. ١٤- والمُنَنجِّذُ : الَّذي جرَّب الأمورَ. ١٥- والمِدرَهُ : الذي يكون رأس القومِ ولسانهم.

١٦- واللَّوذَعِيُّ : الذَّكِي القلبِ. ١٧- والمِصقَعُ : البليغ اللِّسانِ. ١٨- السَّرِيُّ : المرتفعُ القَدرِ ، وجمعه سَرَاةٌ بفتح السين.

فصل [فِي صِفَات البطولة]

١- البَطَلُ :الرَّجل الشُّجاع، وَجمعه أبطَالٌ. ٢- وَمثله الكَمِيُّ، وَجمعه كُمَاةٌ. ٣- والذِّمرُ، وَجمعه أذمَارُ.

٤- والصَّمَّةُ، وَجمعه صِمَمٌ. ٥- والبُهمَةُ، وَجمعه بُهَمٌ . ٦- والشَّهمُ :الحَدِيدُ القلب.

٧- والغَشَمشَمُ :الَّذِي لَا يردَّهُ شَيْءٌ عَمَّا يُرِيدُ. ٨- والنَّهِيكُ :الشُّجاعُ. ٩- والبَاسِلُ :مثله.

وَمن صِفَات الرِّجَال المذمومة

١- اللَّحِزُ :البَخِيلُ. ٢- والشَّرِسُ :السَّيءُ الخُلُقِ. ٣- والبَرَمُ :اللَّئِيم. ٤- والهِدَانُ :الضَّعِيف.

٥- وَكَذَلِكَ الزُّمَّلُ والزُّمَيلُ. ٦- والنَّخِيبُ :الجبانُ. ٧- والجُبَّاءُ :الهَيُوبُ ٨- والكِفلُ :الَّذِي لَا يثبت على الخَيل. ٩- والأميَلُ :نَحوه. ١٠- والاعزَلُ :الَّذِي لَا سلَاحَ مَعَه. ١١- والرِّعدِيدُ :الجبانُ.

١٢- والغُمرُ :الَّذِي لم يجرِّب الْأُمُور. ١٣- والهِلبَاجَةُ :الأحمقُ. ١٤- والمائِقُ :مثله.

١٥- والمَجعُ، والفَدمُ :البعيد الْفَهم. ١٦- والمأفُونُ :الضَّعِيف العقلِ والرَّأي. ١٧- والعَبَامُ :العَيُّ الثَّقِيل.

١٨- واللَّعمَظُ :الشَّرِهُ الْحَرِيص. ١٩- والعِتريفُ :الخَبيثُ الفَاجِر. ٢٠- والخِبُّ :الخَبيث المُخادع.

بابُ الرَّاحَةِ

ويُقـالُ: رَكَنَ فُلانٌ إلى فُـلانٍ وأَخْلَدَ إلى الدَّعَـةِ، والرَّاحَـةِ، والخَفْضِ، والطَّأَةِ. ويُقالُ: فُلانٌ ضَجِيعُ دَعَةٍ، وحَلِيفُ طَأَةٍ، وهُوَ رَافِهٌ، وخَافِضٌ، ووَادِعٌ، وخَالِي الذِّرْعِ، وفارِغُ البالِ، ووَاسِعُ السَّرْبِ، وهُوَ حَلِيفُ الرَّاحَةِ، ورِخْوُ الخِنَاقِ، (وقَدِ اسْتَمْهَدَ الرَّاحَةَ، واسْتَوْطَأَ العَجْزَ، واعْتَادَ الطَّأَةَ، وتَوَسَّدَ الرَّاحَةَ، وهُوَ في مِهَادٍ مِنَ الخَفْضِ)، ورِخْوُ اللَّبَبِ، والبالِ، والقَلْبِ[1].

بابُ التَّعَبِ والعَنَاءِ

وتَقُولُ في خِلافِ ذلكَ: هُوَ في عَنَاءٍ مُعَنٍّ، ونَصَبٍ مُنْصِبٍ، وتَعَبٍ مُتْعِبٍ، وكَـدٍّ. ويُقالُ: تَعِبَتِ الـدَّوَابُّ، وكَلَّتْ، وحَسِرَتْ فَهِيَ حَسْـرَى، وأَزْحَفَتْ فَهِيَ مُزْحِفَةٌ، ونَفِهَتْ نَفْسُهُ، وتَقَوَّضَتْ، وتَقَوَّسَتْ، وتَقَوَّمَتْ إذَا لَمْ يَكُنْ بِهَا نُهُوضٌ، وكَلَّتْ عَنِ القِيادِ، وطَلَحَتْ فَهِيَ طِلْحٌ، وظَلَعَتْ فَهِي ظَالِعَةٌ، ورَزَمَتْ (والظَّالِعَةُ الغَامِزَةُ)، وبَلَّدَتْ، ورَزَحَتْ، ولَغِبَتْ (والرَّازِحُ المُعْيِي والجمعُ رَزْحَى ورُزَّحٌ)، وهِيَ مَعْقُولَةٌ بالتَّعَبِ والكَلالِ. (واللُّغُوبُ التَّعَبُ وكَذلِكَ الأَيْنُ والكَدُّ، والإعْياءُ، والنَّصَبُ).

---

(١) قال اليازجي: يقال: «هو في راحة، ودَعة، وهو على جمام، وقد استراح، واستجمّ، وعفا من تَعَبه، وأخذ حَظَّه من الراحة، واستَنشَى نسيم الراحة، وأمسى رافِهاً، ومُترَفِّهاً، وقد راجَعَه نَشاطُه، وثاب إليه نَشاطُه، وثابَتْ إليه قُوَّتُه، ورَجَعَت إليه نفسه بعد الإعياء. وتقول: فلان خِلْو من الأعمال، فارغ من الأشغال، وإنّه لَيَتَفَيّأ ظِلال الراحة، ويَتَقَلّب بين أعطاف النعيم، وإنّه لا يَمدّ يَدَه إلى عَمَل، ولا يَنقُل قَدَمَه إلى دَرَك، ولا يَشغَل ذَرْعَه بمُهِمّة، وقد أراح نفسَه من مُزاولة الأعمال، وخفّف عن نفسه مَؤونة السَعْي. ويقال: رَفِّه الرجل عن نفسه أي أزال عنها ما يُتعِبُها، وهو يُهاوِن نفسَه أي يرفق بها. ويقال أرفِه عندي، واستَرفِه، ورَفِّهْ عندي، ورَوِّح عندي، أي أقِمْ واستَرِح.» (اليازجي: نجعة الرائد ٢/١٢٣ - ١٢٤).

ويُقالُ: قَدْ عَلِمْتَ مَا قَاسَيْتُ فِي هَذَا الأَمْرِ، وعانَيْتُ، وكَابَدْتُ، وعالَجْتُ، ومَارَسْتُ، وزَاوَلْتُ. وهَـذَا أَمْـرٌ صَعْبُ المِـرَاسِ، والمُـزَاوَلَـةِ[1]. (قـالَ ابْنُ الأَشْعَثِ[2] لِرَجُلٍ عيَّرَهُ بِالجُبْنِ: واللَّهِ ما كُنْتُ جَبَاناً، ولكِنّي زاوَلْتُ أَمْراً مُؤَجَّلاً).